

## أبطالنا المنسيون

وأعجابنا المغمورة

بقلم الأستاذ سيد قطب

لكل أمة أبطالها التاريخيون في كل نواحي البطولة ، تضرهم أمثالا لأبنائها الناشئين ، وتعرض حياتهم في شتى الصور، فنارة تعرضها عرضا تاريخيا ، ونارة تعرضها عرضا تحليلا ، ونارة تحوكم حول سيرتهم القصص ، ومرة تصوغ حولهم الأساطير . وذلك حسب الطبقات التي تقدم لها الأمثال من حياة هؤلاء الأبطال .

فحين تخاطب الجماهير الساذجة والأطفال الصغار تختار طريق الأساطير والنقص لأنها الطريقة المحببة إلى الأطفال وإلى الجماهير ، والوسيلة المؤثرة في نفوسهم ، الحبيبة إلى قلوبهم . وحين تخاطب طلاب العلم ورجال البحث ، تختار طريق العرض التاريخي أو السير التحليلية ، لأنها الطريقة اللائقة بالقول المفكرة والحقائق المدروسة .

وهي في جميع الحالات تحيط هؤلاء الأبطال بهالة من الإعجاب والتقدير ، تجعل منهم قدوة محبوبة للأجيال ، ومثلا يتطلع كل فرد إلى تحقيقها في الحياة .

هذا الإعجاب وهذا التقدير ، يثيران في الأمم فضائلها الكامنة ، ويثيران في الأفراد قواهم المذخورة ، فتبدو تلك الفضائل ، وتنبه هذه القوى ، وتصبح عوامل بناء في جسم الأمة ، وحوافز نهوض في نفس الشعب على مدى الأجيال .

ولهذا تتخذ الأمم الحية كل وسيلة لإبراز هؤلاء الأبطال ، حتى لقد تتخذ اللهب وبعض أنواع الحلوى وسيلة للتعريف بأبطالها في نفوس الأطفال الناشئين ، وكثيرا ما رأينا بعض أنواع "الشكولاته" والحلوى قد لفت بغلاف أو دست فيها بطاقة . تحوى صورة أو جملة أو حكاية قصيرة عن بطل من الأبطال ، وكذلك اللهب وأدوات الكتابة ومواها .

وربما كانت هذه الوسيلة من أحب الوسائل إلى الأطفال ، ومن أنجعها في تعريف الأبطال إليهم ، لأن هذا التعريف يحمل إليهم مع أحب الأشياء إلى نفوسهم ، وإطالعونه في لحظات مرورهم ونشاطهم ، ويقدم إليهم في صورة غير صورة الدرس الثقيل !

ومصر لا ينقصها الأبطال من جميع الأنواع في تاريخها المديد في العهود الفرعونية وفي عهود الإسلام على السواء ، وتاريخها الطويل المتصل الحلقات يتيح لها مجموعة ضخمة من الأبطال الذين يجب أن تمتاز بتاريخهم ، وأن تقدر ذكراهم ، وأن تضربهم أمثالا عالية للناشئة من أبنائها ، وللجماهير من شعبها ، ولطلاب الدراسات والمعرفة فيها .

ولكن تلاميذنا في المدارس وجامعاتنا في المجتمع ، وطلابنا في معاهد العلم ، لا يعرفون إلا القليل عن القائلين من هؤلاء الأبطال ، وإنهم يعرفون عن أبطال الأمم الأوربية والأمريكية أضعاف ما يعلمون عن أبطال مصر خاصة والعالم الإسلامي على وجه العموم ، ودعك من أبطال الشرق كله إذا أردنا أن نرسم محيطا في أوسع حدوده .

يعرف تلاميذنا عن نابليون أكثر مما يعرفون عن رمسيس ، ويعرفون عن شاريبالدي أكثر مما يعرفون عن أحمدس ، ويعرفون عن مارتن لوثر أكثر مما يعرفون عن محمد عبده ، وهكذا وهكذا من الأسماء في التاريخ القديم وفي التاريخ الحديث على السواء .

أما نهضتنا القومية الأخيرة فلا يعرفون عن أبطالها إلا القليل مشوها أو مبتورا في معظم الأحيان . فهم لا يعرفون إلا التساهة القليل عن عرابي أول زعيم قزر للشخصية المصرية احترامها ووجودها ، ولا عن مصطفى كامل أول زعيم وطني نفخ في روح الكرامة القومية والبخوة الوطنية ، ولا عن محمد بك فريد أول زعيم وطني ضرب مثلا للتضحية الخارقة ولا عن سعد زغلول أول زعيم وطني وعمم الشعور الوطني في جميع النفوس .

فإذا تجاوزنا مصر إلى العالم الإسلامي لم نجد تلاميذنا وطلابنا يعلمون إلا النليل الخلف عن أبطال الإسلام . وما لاشك فيه أنهم يعرفون عن نابليون بونابرت ، ونلسون ، وغاريبالدي وبيتهوفن ، وكولبوس ، وأمثالهم أكثر مما يعرفون عن خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعبد الرحمن الناصر ، والمارابي ، وابن بطوطة وأمثالهم . وهذا نقص عجيب في تربيتنا القومية والإسلامية .

وإن أمة تعتمد في إنارة البخوة وحفز الهمة على أبطال من غير جنسها ، لهي أمة ناشلة في تربيتها الروحية ، وقد كانت تلتمس لها الأعذار لو أن تاريخها خلو من الأبطال ، فأما إذا كانت تجد منهم عشرات ومئات في التاريخ القديم والتاريخ الجديد ، وفي محيطها القومي الخاص ، ومحيطها الديني العام ، فإنها تكون حينئذ مقصرة أشنع التقصير .

\* \*

وهنا يجب أن نسجل أوائل نهضة محمودة في هذا الاتجاه ، فلقد توجه جماعة من أدبائنا وجهة جديدة إلى دراسة البطولة الشرقية والمصرية ، فتصدرت كتب كاملة عن مجد ( صلى الله عليه وسلم ) وأبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) ، وعن عبد الرحمن الداخل ، وعن غاندي ومصطفى كمال ، وعن عمر مكرم ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل ومجد فريد .

فيجب أن تطرد هذه النهضة فتصدر دراسات وافية عن أمثال خالد بن الوليد  
وصلاح الدين الأيوبي وابن سينا والفارابي وجمال الدين الأفغاني وعزابي، كما يجب أن تصدر  
دراسات وافية عن توت عنخ أمون وثورته الدينية ، وعن بنناءور الشاعر المصري القديم ،  
وعن أخنس البطل المصري الذي طرد الهكسوس ، وتحتمس مؤسس الأمبراطورية  
ورمسيس المحارب العظيم . . . الخ

على أن الدراسات العلمية والجامعية ليست هي كل ما يطلب في هذا الاتجاه، فقراء هذه  
الدراسات محدودون، وهم كبار السن على كل حال، وإنه ليعتينا قبل كل شيء أن نعرف هؤلاء  
الأبطال إلى أطفالنا الصغار وإلى جماهيرنا الغفيرة ، وهؤلاء لا يقرءون الدراسات العلمية ،  
ولا يصبرون عليها، فيجب أن نقدم لهم هؤلاء الأبطال في صور أخرى جميلة وجذابة ومحبوبة .

وما يسرنا هذه المهمة أن جميع الشعوب الحية قد سبقتنا إليها ، ومهدت الطريق  
أمامنا ، فليس علينا إلا أن نقبس هذه الوسائل المهيئة المدروسة . تلك الوسائل هي القصة  
والأسطورة والصور الملونة الجذابة ، والحكاية القصيرة ، والنادرة المريعة ، نضعها في كل  
مكان تنسل إليه أيدي الصغار وأيدي الجماهير .

فكتب المطالعة وكتب المحفوظات وكتب التاريخ ، والمتاحف المدرسية والمتاحف  
العامة ، والسنيما والمسرح والأغاني ، واللعب والأدوات المدرسية وصناديق الحلوى ،  
وعلب الشيكولاته وسواها. مما يصنع داخل البلاد ، يجب أن تكون جميعها وسائل لتعريف  
هؤلاء الأبطال إلى الجميع .

وعلى عاتق وزارة المعارف تقع النعمة الأولى بما تملك من الوسائل الكثيرة في المدرسة  
ودور الثقافة العامة ، ولكن هذا عمل قومي يجب أن تقوم عليه هيئات أخرى بجانب  
وزارة المعارف ، في مقدمتها هيئة الصحافة وهيئة الأدباء ودور النشر وهيئات الاجتماعية  
على اختلاف ميادين نشاطها في أنحاء البلاد .

لقد اشتركت في وضع كتاب مدرسي لمحفوظات الأطفال مع جماعة من الأساتذة  
الأدباء ، فكان أول ما اتجهت إليه أنظارنا أن نضمن كتابنا قصصا عن سير بعض الأبطال ،  
واختارنا لذلك شخصيتين إحداهما مصرية وهي شخصية رمسيس ، وثانيتها عربية وهي  
شخصية صقر قريش ، وحاولنا أن نرسمهما في صورة جذابة مستعيزين مع الحقائق التاريخية  
بعض الأساطير ، ويجب أن تطرد هذه الروح في كل ما يقدم للأطفال .

والأسطورة والقصة في دذه السن هما أقرب الطرق إلى النفوس ، أما حين تتقدم  
السن وتوسع المعرفة فتصبح السيرة والتاريخ هما الوسيلتان المناسبتان لعرض حياة الأبطال .

وعلى هذا النحو ينبغي أن تتجه سياسة التعليم وسياسة التربية القومية ، فلا يكفي أن يجمع هذا الهدف عرضاً وبلا قصد أو لملء الفراغ في الكتب والمناهج ، بل يجب أن تختار بمحطات من أبطالنا لكل فرقة من الفرق ، وتعرض بالطريقة المناسبة لعقلية التلاميذ في كل مرحلة وأن تتعاون المواد المدرسية لتأدية هذا الغرض ، فلا تكون خصمة التاريخ وحدها هي المعرض الوحيد .

إن دروس التاريخ والتربية الوطنية والمطالعة والمحفوظات والإملاء والإنشاء والنشاط المدرسي ، تصلح جميعاً للمساهمة في هذا الغرض الهام من أغراض التربية الشخصية والقومية التي تهتم بها جميع البلاد المتحضرة .

ويمكن أن ننبه هنا إلى أن التعريف بهؤلاء الأبطال على النسق المتبع في دروس التاريخ ودروس تاريخ الأدب العربي أو تاريخ التربية ، قد يأتي بعكس المقصود منه ، وقد يكره هؤلاء الأبطال إلى نفوس الصغار وينفر منهم نفوس الجماهير إذا فكرنا أن تقدم لهم دراسة عن هذه الشخصيات في إذاعات الراديو مثلاً على النسق المدرسي .

فيعيب هذه الطريقة أنها تفقد الموضوع الحياة والجاذبية وتقدمه نتفاً مقتضية ، أو حوادث جافة ، أو سرداً مملاً لا يصبر عليه القارئون والمستمعون .

فالتشويق هو العنصر الأول الذي يجب أن يتوافر لطريقة الرض والتعريف . وإن صورة ملونه تحتها يمتن السطور المشوقة عن بطل من الأبطال ، أو نادرة لطيفة ، أو واقعة مثيرة لخير ألف مرة من ذلك السرد الجاف لمولده ووفاته وأعماله !

وإن أسطورة خيالية ، أو قصة فنية ، نذاع عن بطل من الأبطال ، لأجدي ألف مرة من دراسة تحليلية تاتي بالراديو عن حياته وأعماله .

وإن تمثيلية أدبية تصور حياة بطل ووقائعها لأفضل ألف مرة من كتاب يضم تاريخه بالتفصيل بأسلوب لا يستفيد منه إلا الخواص .

ولسنا نحرم بهذا أن تصدر دراسات علمية تحليلية لهؤلاء الأبطال ، فهذه حلقة لا بد منها لتكلمة السادة ، إما نريد أن نتخذ أسد الوسائل إغراءً وجاذبية في هذا التطور الأول ، بمد الإهمال الشديد الذي أهلناه لأبطالنا القدامى والمحدثين حتى نسبهم التمس ولم يعودوا يتطعمون إلى معرفة شيء عنهم لأنهم أموات في نفوسهم ، بعيدون عن قلوبهم .

فلنختد أولاً في إيقاظ هؤلاء الأبطال في نفوس الناشئة ونفوس الجماهير ، فإذا بحثوا من جديد بالوسائل المقرية المشوقة ، عدنا ندرس حياتهم دراسة تحليلية ونقدمها لخواص وهم عدد قليل في جميع الشعوب .

فإننا تجاوزنا دائرة الأشخاص إلى دائرة الواقع وجدنا أننا نهمل في إبراز الأجداد المصرية والإسلامية والشرقية كما نهمل في إبراز الأبطال سواء بسواء .

فالتاريخ المصري الخاص ، والتاريخ الإسلامى والشرقى العام حافل بالأجداد التاريخية ، ولكننا لانجد لها إلا ظلا مشوها في رءوسنا ، بينما نذكر بوضوح الأجداد الأوروبية والأمريكية قديمها وحديثها على السواء .

ولقد وعى التاريخ لمصر العريقة أجدادا لا نظير لها بين جميع شعوب الأرض ، ولكن التاريخ المدرسى المشوه المتور بصور لنا مصر في صورة الأمة المستعبدة على مدى الأجيال ، ويلم بعصور استقلالها وعصور إمبراطوريتها قديما وحديثا مر العجالي المسرعين !

فإن أجداد خوفو ورمسيس وتحتمس ، وأبن الأجداد العالمية والفنية التي يذخر بها التاريخ القديم ، إنما جميعا تذكر في بضعة سطور مبتورة في أسلوب جاف ، ولا تعقد بينها وبين المصري المعاصر صلة من الصلات ، ولا تبث فيها الحياة التي تبعثها واضحة متحركة في نفوس المصريين سلالة أصحاب هذه الأجداد التي وطاها التاريخ فذهبها المصريون .

والأجداد الإسلامية والشرقية عامة شأنها في الإهمال شأن الأجداد المصرية البهتة ، وإذا ذكرت فأنما تذكر على سبيل السرد والإحصاء لا على سبيل الدراسة والإحياء .

وإن تبعت هذه الأجداد حية نابضة إلا يوم تدخل النفوس من نافذة الأدب والفن ، فتحيا في الأغاني والأناشيد والقصص والتمثيلات والأساطير ، ويوم يتناولها كذلك مؤرخون أدباء يحلون مادة التاريخ الجافة قطعة نابضة من الحياة .

وهذا العمل الأخير أعسر وأندر لأن ملكة التاريخ الأدبي نادرة في الشعوب ، ولكن الملكات الأدبية البهتة كثيرة وشائعة ، وفي الوسع توجيهها هذه الوجهة دون أن تفقد قيمتها الفنية .

وإن تعوز الفنان المصري المادة النمامة التي يصوغ منها الأجداد المصرية والإسلامية والشرقية فحيما امتد بصره رأى هذه الأجداد على مرأى العين ، والثورة المصرية الأخيرة وحدها لا تزال منجما غنيا لم يستخرج منه إلا القليل .

كل ما يتقصنا هو الاتجاه ، وما أحوحنا إلى هذا الاتجاه ، ونحن نبنى أجدادنا الحديثة على أساس من أجدادنا القديمة ، ونحن في مطلع فجر جديد بمد نوم مديد .

سيد قطب